دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	مراجعة كتب : رد الاعتبار للعقل الإسلامي
المصدر:	منبر الحوار - دار الكوثر - لبنان
المؤلف الرئيسي:	هويدي، فهمي
المجلد/العدد:	مج 4, ع 13
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1989
الشهر:	ربيع
الصفحات:	122 - 128
رقم MD:	524707
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	العلماء المسلمون ، السقا، محمد الغزالي أحمد ، كتاب السنة النبوية بين أهل الفقه و أهل الحديث ، نقد الكتب
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/524707

© 2016 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

رد الإعتبار للعقل الإسلامي

مراجعة كتاب : الشيخ محمد الغزالي.
السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث ،
دار الشروق ١٩٨٩

فهمي هويدي

لولا لومة لائم لقلت : هذه بريسترويكا إسلامية ! ـ ولولا خشية الإلتباس لقلت : هذه ثورة تصحيح ! ، فالعمل الذي بين أيدينا يتراوح بين هذه وتلك . أعني أنه خليط من الدعوة الجسورة إلى إعادة بناء الوعي المسلم ، وإلى الثورة على ركام المقولات والإجتهادات التي حاصرته طوال قرون عدة ، على غير أساس من الفقه الصحيح ، وقد أكسبها التقادم قدسية متحولة ، أسهمت في تشويه العقل المسلم ، وفي إفساد علاقته بالواقع ، وبالتالي في تعويق قدرته على التقدم والإبداع .

الكلام منصب على تلك الرسالة المثيرة التي حملها إلى الأمة أحدث كتب الشيخ محمد الغزالي : « السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث » . دار الشروق ، ١٩٨٩ وهو عنوان شديد الهدوء والرصانة ، لكنه غطاء ناعم لقنبلة فكرية أطلقها الشيخ ومضى :

الكتاب مهم في مادته حقاً ، لكن توقيت صدوره لا يقل أهمية . إذ يأتي في أوان بدا فيه أن الفراغ الفقهي بلغ ذروته ، وأن الساحة قد اختلط فيها الحابل بالنابل . ففي ظل غيبة الفرسان أو تغييبهم ، صار الصوت العالي موزعاً بين شباب قليلي العلم ، وأدعياء كثيري الأفك ، وصائدين استثمروا جهل الأولين وأفك الآخرين ، ليقدموا إلى الناس ديناً مغشوشاً وممسوخاً لا يصلح حاضراً ولا يؤمن مستقبلاً . النفور منه واجب والبعد عنه غنيمة .

شيخنا لا يخاطب أياً من هؤلاء ، لكنه يضع يده على أصل الداء . على المنهج المغلوط ، الذي يفرز الموقف الشائه أو العاجز . وبينما هو ينقض الأساس ، فإنه يكمل المسيرة ليصحح البناء الذي قام فوقه ، متصدياً من خلال ذل للعديد من القضايا والمشكلات المثارة في زماننا .

هو لم يبتدع ولم يخترع . فقط استخدم المفاتيح الصحيحة في مكانها الصحيح . أزاح أكوام التراب وطبقات الصدأ التي طمست تلك المفاتيح ، التي صنعها أهل الأصول ، ثم اقتحم بها

غابة الركود والجمود وحصون الفكر العليل ، في ثقة عظيمة وجرأة مشهودة .

قلنا إن الأساس الذي عن الشيخ الغزالي بنقده ونقّضه هو « المنهج » المعتمد في استخلاص الأحكام الشرعية . وخلاصة الموقف الذي تلقاه ، وراجع في ضوئه مختلف الفتاوي والإجتهادات ، هي : أن الإرتكاز على السنة بغير تمكن من الفقه ، يفتح باباً واسعاً للزلل وانتهاك المقاصد الشرعية . وأن القرآن هو الإطار المرجعي لكل حديث صادر عن النبي أو منسوب إليه . وأن أي حديث لا يكف للأخذ به أن يكون صحيح السند ، وإنما يجب أن يكون متنه أو نصه صحيحاً بنفس المقدار . أي يشترط فيه ألا يكون شاذاً ، فلا يتعارض مع ما هو اوثق منه ، وإلا تعتريه عِلَّة قارحة ـ بتعبير الأصوليين ـ وهي العيب الذي يبصره المحققون في الحديث ، فيردونه به .

هذا عن النصوص الشرعية ، أما اجتهادات البشر ، فلا حصانة ولا قدسية لها ، وإنما يؤخذ منها ويرد ، بالقدر الذي يحقق المصالح ويدرأ المفاسد .

وفضلاً عن هذا وذاك ، فينبغي أن تأخذ الحقائق الأساسية في التعاليم مكانها في المقدمة من اهتمامات العقل المسلم ، فلا ينشغلون بنقض الوضوء عن نقض حقوق الإنسان . ولا يلهيهم إطلاق اللحى عن المطالبة بإطلاق الحريات . ولا يتعاركون حول وضع الأيدي في الصلوات ، بينما يسكتون على تزوير الإنتخابات وانتهاب الثروات . ولا يتجادلون حول رؤية الله في الآخرة ، بينما يذهلون عن رؤية حقائق الدنيا ومنجزات العلم ومتغيرات الزمان .

« لقد ضقت ذرعاً بأناس قليلي الفقه في القرآن ، كثيري النظر في الأحاديث ، يصدرون الأحكام ويرسلون الفتاوى ، فيزيدون الأمة بلبله وحيرة » ..

« ولا زلت أحذر الأمة من أقوام بصرهم بالقرآن كليل ، وحديثهم عن الإسلام جريء ، واعتمادهم كله على مرويات لا يعرفون مكانها من الكيان الإسلامي المستوعب لشئون الحياة » .

هكذا يقول الشيخ الغزالي في مستهل كتابه ، وهو يهم بالإقلاع في رحلته المثيرة .

الدم ليس افضل !

إذا قتل مسلماً شخصاً آخر غير مسلم ، فهل يجوز القصاص منه ؟

إستناداً إلى حديث صحيح ، فإن القصاص لا يجوز . وهو الرأي الذي يتبناه أهل الحديث ، الذين يرون أيضاً أن دية المرأة على النصف من دية الرجل .

لكن الشيخ الغزالي يرد حديث « لا يقتل مسلم في كافر » رغم صحة سنده ، لأنه يخالف النص القرآني الذي يقرر بأن : ﴿ **النفس بالنفس** ﴾ ـ هكذا على الإطلاق بصرف النظر عن لون أو جنس أو دين هذه النفس . فالقصاص شريعة الله . ثم إنه حديث آحاد ـ ليس موضع اجماع أو تواتر ـ وتعارضه مع النص القرآني ـ الذي هو الأصل والحكم ـ يخرجه من دائرة القبول . وهذا هو موقف الفقه الحنفي الذي يصفه الشيخ الغزالي في هذه النقطة ، بأنه « أدنى إلى العدالة ، وإلى احترام النفس البشرية ، دون نظر إلى البياض والسواد ، أو الحرية والعبودية ، أو الكفر والإيمان » .

فالإنسان مخلوق مكرَّم بنص القرآن ، يستوي في ذلك المسلم وغير المسلم ، بالتالي فكرامة الأول ليست أرفع من كرامة الثاني ، ولا دم الأول أفضل من دم الثاني .

والرأي الذي يتبناه الشيخ ـ انطلاقاً من منهجه ـ أن المسلم إذا قتل غير مسلم فيجب قتله ، وبتعبيره ، فإذا قتل فيلسوف مسلم ، كافر طريق غير مسلم ، قتل فيه . فالنفس بالنفس .

يسري ذلك على دية المرأة التي يحددها أهل الحديث بنصف دية الرجل ، بينما يصف الشيخ الغزالي هذا الموقف بأنه : سوأة فكرية وخلقية رفضها الفقهاء المحققون .

ويقدر بأن « الدية في القرآن واحدة للرجل والمرأة ، والزعم بأن دم المرأة أرخص ، وحقها أهون ، زعم كاذب مخالف لظاهر الكتاب » ـ (ص ١٩) .

وهو يعزز دعوته إلى ضرورة الإحتكام إلى الفهم الصحيح لنصوص القرآن ، في العمل بأي نص شرعي آخر ، مستشهداً بموقف السيدة عائشة عندما سمعت حديثاً يقول بأن الميت يعذب ببكاء أهله عليه . « فقد أنكرته ، وحلفت أن الرسول ما قاله ، وقالت : ـ بياناً لرفضها إياه ـ أين منكم قول الله سبحانه : ﴿ ولا تزر وازرة وزر اخرى ﴾ ؟ .

« ... إنها ترد ما يخالف القرآن بجرأة وثقة ـ قال الشيخ ـ ومع ذلك ، فإن الحديث المرفوض من عائشة ما يزال مثبتاً في الصحاح ، بل أن « ابن سعد » في طبقاته الكبرى كرره في بضعة أسانيد » ـ (ص ١٦) .

الرأي القوي يقدم على الرواية المريبة .

هذا منطوق يرد في السياق . يستند في ذكره إلى قصة المرأة ـ فاطمة بنت قيس ـ التي نقلت عن النبي أنه لم يجعل للمطلقة ثلاثاً حقاً في السكن أو في النفقة . وهو قول رده أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وقال : لا نترك كتاب ربنا وسنة نبينا ، لقول امرأة لاندري حفظت أم نسيت ، لها السكن والنفقة ، (اعتماداً على ظاهر النص القرآني) .

بعدما أثبت المنطوق السابق ، أضاف الشيخ : لكن عجبنا يشتد عندما نرى من يترك النقل والفقه معاً في بعض الأحكام ! .

في هذا الصدد أورد العديد من الأحاديث النبوية التي تنهض عن تزويج المرأة أو الفتاة قبل استئذانها ، ثم قال : ومع هذا فإن الشافعية والحنابلة أجازوا أن يجبر الأب إبنته البالغة على الزواج بمن تكره ! ـ ووصف هذا الموقف بأنه لا يفسر إلا بالإنسياق مع تقاليد إهانة المرأة ، وتحقير شخصيتها (ص ٣٣) .

الغض عن القفا ؟!

لم يتم الإقلاع بعد . فالإشارات والوقائع التي ذكرت كانت لتقرير المنهج وشرح أبعاده وإثبات أسانيده . كانت لاستجلاء المفاتيح التي أشرنا إليها . بعدها خاض الشيخ معركته . دخل إلى الغابة ! .

من جولة « في عالم النساء » ، تعرض فيها لقضايا الحجاب والنقاب والوظائف العامة وشهادة المرأة في الحدود والقصاص ، إلى خوض في مشكلة الغناء والموسيقى ، إلى تبديد الغيوم المثارة حول آداب السلوك الإجتماعي خصوصاً ما يتعلق منها بالثياب وبالطعام ، إلى مسألة المس الشيطاني ، إلى الجهاد ، ثم القدر والجبر .. كلها قضايا شائكة وملغومة ، ومثيرة لجدل لم ولن يتوقف ! لكنه حسم فيها الأمر ، وأوجز القول ، حتى جاءت رسالته الحافلة في ١٦٠ صفحة ، من

كتابه الذي طبعته « دار الشروق » قبل أيام قليلة .

وعلى تعدد الموضوعات التي تعرض لها الشيخ الغزالي ، إلا أن قارئه يلحظ أنه أعطى موضوع المرأة نصيباً وافراً من اهتمامه ، فبذل جهداً كبيراً في مناقشة وتحقيق مختلف النصوص والإجتهادات التي تعلقت بمكانتها وإسهامها في الواقع الإجتماعي . ولكثرة إلحاحه على إنصافها ورفع الإجحاف والظلم عنها ، إحقاقاً لحقها الذي قرره لها الإسلام ، فإن شيخنا يرشح بجدارة ، وبالتزكية! ، لاكتساب لقب : نصير المرأة وحاميها .

أشار في البدء إلى كتاب صدر في إحدى دول الخليج يقول فيه مؤلفه : أن الله حرم الزنا ، وأن كشف الوجه ذريعة إليه ، فهو حرام لما ينشأ عنه من عصيان ! .

وعقب على هذا الرأي قائلاً : أن الإسلام أوجب كشف الوجه في الحج ، وألفه في الصلوات كلها ، أفكان بهذا الكشف في ركنين من أركانه يثير الغرائز ويمهد للجريمة ـ ما أضل هذا الإستدلال .

وأضاف : أن النبي عليه الصلاة والسلام رأى الوجوه سافره في المواسم والمساجد والأسواق ، فما روي عنه قط أنه أمر بتغطيتها ـ فهل أنتم أغير على الدين والشرف من الله ورسوله ؟! .

وهو يسجل اعتراضه القوي على فكرة النقاب ، أورد أحد عشرة حجة عقلية وسنداً تاريخياً تعزز اعتراضه . في أولها تساءل : إذا كانت الوجوه مغطاة ، فمم يغض المؤمنون أبصارهم ، كما في الآية القرآنية المعروفة ؟ .. أيغضونها عن القفا والظهر ؟! ـ ثم أجاب : الغض يكون عند مطالعة الوجوه بداهةً ! .

في آخر ما أورده من أدلة وشواهد ، ذكر قصة إحدى المسلمات ، إسمها سبيعة بنت الحارث ، كانت قد ترملت وهي حامل ، فلما وضعت ، أصلحت نفسها وتجملت للخطاب ـ لاحظ العبارة ـ فدخل عليها أحد الصحابة ، وقال لها : مالي أراك متجملة ، لعلك تريدين الزواج ـ؟! ـ وأخبرها بأنها لا تستطيع الزواج إلا بعد فترة معينة ، فتوجهت إلى النبي سائلة ، فأفتى لها بأنها أصبحت في حل بعد الوضع ، وأذن لها بالزواج .

المهم أن القصة جاءت في رواية عن مسلم ، الذي وصف المرأة بأنها كانت « مكحولة العين مخضوبة الكف » ، ولم يكن أبو السنابل من محارمها الذين يطلعون بحكم القرابة على زينتها . قال الشيخ الغزالي ، أن الملابسات كلها تشير إلى بيئة يشيع فيها سفور الوجه ، ولا تعرف النقاب ! .

إحتقار الأنوثة جريمة

كلامه في شأن عمل المرأة وتوليها للوظائف العامة يستعصي على التلخيص أو الإختصار . لذا ، فسأنقل عباراته كما قالها ، بتصرف لا يتجاوز حدود الربط . « أكره البيوت الخالية من رباتها ... لكن احتقار الأنوثة جريمة .. والدين الصحيح يأبى تقاليد أمم تحبس النساء وتضيق عليهن الخفاق ، وتضنّ عليهن بشتى الحقوق والواجبات . كما يأبى تقاليد أمم أخرى جعلت الأعراض كلا مباحاً . وأهملت شرائع الله كلها عندما تركت الغرائز الدنيا تتنفس كيف تشاء.. .

« يمكن أن تعمل المرأة داخل البيت وخارجه . بيد أن الضمانات مطلوبة لحفظ مستقبل

الأسرة ، ومطلوب أيضاً توفير جو من التقى والعفاف تؤدي فيه المرأة ما قد تكلف به من عمل .

« إذا كان هناك مائة ألف طبيب أو مائة ألف مدرس ، فلا بأس أن يكون نصف هذا العدد من النساء . والمهم في المجتمع المسلم قيام الآداب التي أوصت بها الشريعة ، وصانت بها حدود الله .. .

« إن هناك نشاطاً نسائياً عالمياً في ساحات شريفة رحبة لا يجوز أن ننساه ، لما يقع في ساحات أخرى من تبذل وإسفاف .

« إنني أشعر بأن أحكاماً قرآنية ثابتة أهملت كل الإهمال ، لأنها تتصل بمصلحة المرأة . منها أنه قلما نالت إمرأة ميراثها ، وقلما استشيرت في زواجها .. والتطويع بالزوجة لنزوة طارئة أمر عادي . أما قوله تعالى : ﴿ **وإن خفتم شقاق بينهما ، فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها** ... ﴾ ، فحبر على ورق ! .

« المرأة أنزل رتبة وأقل قيمة من أن ينعقد لها مجلس صلح . إن الرغبة في طردها لا يجوز أن تقاوم . وقد نددت في مكان آخر بأن خطيئة الرجل تغتفر ، أما خطأ المرأة فدمها ثمن له ! .

« الذي يثير الدهشة ، أن مدافعين عن الإسلام أو متحدثين بإسمه ، وقفوا محامين عن هذه الفوضى الموروثة ، لأنهم ـ بغباوة رائعة ـ ظنوا أن الإسلام هو هذه الفوضى ، والجنون فنون ، والجهالة فنون ! ـ (ص ٤٧) .

أورد الشيخ النصوص الشرعية التي تصنف الرجال والنساء في مرتبة واحدة . وقال أن قوامة الرجل على المرأة هي في بيته وداخل أسرته ، ولأنه المسئول الأول عن الإنفاق على البيت .

ابن حزم قرر أن الإسلام لم يحظر على إمرأة تولي منصب ما ، باستثناء الخلافة العظمى ، أو رئاسة الدولة . وهو في مقولته تلك كان بعده متجهاً إلى الحديث النبوي القائل : خاب قوم ولوا أمرهم امرأة . فاعتبر أن الولاية المقصودة هي الخلافة .

قال الشيخ الغزالي أن الحديث صحيح في سنده ومتنه ، لكنه يصف حالة ولا يقرر حكماً عاماً . فالنبي عليه الصلاة والسلام كان يتحدث عن بلاد فارس ووثنيتها السياسية المستبدة ، التي سلمت الحكم لفتاة أودت بالدولة كلها .

ثم أضاف : ولو أن الأمر في فارس شورى ، وكانت المرأة الحاكمة تشبه جولدا مائير ، اليهودية التي حكمت إسرائيل ، واستبقت دفة الشئون العسكرية في أيدي قادتها ، لكان هناك تعليق آخر على الأوضاع القائمة .

وقال : أن القرآن أشاد في سورة النحل بحكمة وذكاء ملكة سبأ ـ بلقيس ـ التي قادت قومها إلى الإيمان والفلاح ... ومستحيل أن يرسل النبي حكماً في حديث يناقض ما نزل عليه من وحي .

تحدث الغزالي عن الملكة فكتوريا وتاتشر وأنديرا غاندي ، وقال : لسنا من عشاق جعل النساء رئيسات للدول أو رئيسات للحكومات . إننا نعشق شيئاً واحداً ، أن يرأس الدولة أو الحكومة أكفأ إنسان في الأمة ! ـ (ص ٤٨) .

في موضع آخر تساءل : ما دخل الذكورة والأنوثة في كفاءة الحكم ؟ .. إن امرأة ذات دين ،

خير من ذي لحية كفور ! ـ (ص ـ ٥١) .

يواصل الشيخ تقدمه على ذات الطريق . فيرد حديثاً موضوعاً يمنع تعليم النساء الكتابة ، ويتساءل : لحساب من تعود هذه الجاهلية ؟ .. ويرد حديثاً آخر يأبى على النساء حضور الجماعات (في الصلاة) ، بل طلب من المرأة إذا أرادت الصلاة في بيتها أن تختار المكان الموحش المعزول . فصلاتها في سرداب أفضل من صلاتها في الغرفة . وصلاتها في الظلة أفضل من صلاتها في الضوء . وإزاء غرابة الحديث وشذوذه ، لأنه يخالف السنة العملية ، فقد استبعده . وسأل : إذا كان الأمر صحيحاً ، فلماذا ترك النبي النساء يشهدن الجماعات معه طوال عشر سنين من الفجر إلى العشاء ؟ .

العفاريت ... والمسلمون ؟

عندما جاء دور الغناء والموسيقى ، استهل الشيخ حديثه بقوله : من حق المهتمين بالأحاديث الضعيفة أن يذكروها بعيداً عن دائرة العقائد والأحكام التشريعية ، فإن الدماء والأموال والأعراف أكبر من أن تتداول فيها شائعات .

واستطرد قائلاً : لقد رأيت في هذه الأيام من يسمي نفسه أمير جماعة . والجهد الذي يتصبب عرقاً وهو يقوم به ، هو إشاعة النقاب بين النساء ، أو إشاعة الجلباب بين الرجال ، أو تحريم الذهب على النساء والرجال جميعاً ، أو ترك شعر اللحية ينمو ، فلا يؤخذ منه شيء حتى لقاء الله .

ثم تساءل : أهذه غايات تتكون لها جماعات ؟!

بعد ذلك دخل في موضوع الغناء وملحقاته ، واستعرض ما قاله ابن حزم في النصوص العديدة التي يحتج بها في تحريم الغناء ، وأيده في مقولته : لا يصح في هذا الباب شيء أبداً ، وما ورد فيه موضوع ـ (ص ـ ٧٠) .

وأضاف : الغناء كلام ، حسنه حسن ، وقبيحه قبيح . هناك أغان آثمة ، تلقى في ليالي ظالمة مظلمة ... وهناك أغاني سليمة الآداء ، شريفة المعنى . قد تكون عاطفية وقد تكون دينية ، وقد تكون عسكرية ، تتجاوب النفوس معها أو تمضي مع ألحانها إلى أهداف عالية .

وروى قصةً حدثت معه أثناء عمله خارج مصر ، عندما ناقش زائراً أصر على أن الغناء حرام كله . وفي المناقشة قال الشيخ لصاحبه : إن الإسلام ليس ديناً إقليمياً لكم وحدكم . أن لكم فقهاً بدوياً ضيق النطاق ! ـ وعندما تضعونه مع الإسلام في كفة واحدة ، وتقولون : هذه الصفقة لا ينفصل أحدها عن الآخر ، فستطيش كفة الإسلام وينصرف الناس عنه . وهذا ظلم كبير لرسالات الله وهداياته . ـ (ص ٧٥) .

تحت عنوان « الدين بين العادات والعبادات » ، ناقش المرويات المتعلقة بآداب الطعام واللباس والسكن . فقال أن محاربة العادات الغربية بأخرى عربية حرب لا صلة لها بالإسلام . وبعدما دحض الإجتهادات التي تدعوا إلى الأكل على نحو معين ـ على الأرض أو باليد ـ أو ارتداء زي معين ، عمامة أو جلباباً ، قال أن الأحاديث المعروضة في البابين باطلة ، وأصح ما ورد قول النبي عليه السلام : « كل ما شئت ، والبس ما شئت ، ما أخطأتك خصلتان : سرف ومخيلة ! .

قال : وإذا أردنا الحفاظ على « شخصيتنا » ، فإن ذلك يتم بصدق اليقين وشرف السيرة ،

وسعة المعرفة ودماثة الخلق ! ـ (ص ٨٦) .

رفض الشيخ الغزالي ما يقال عن إلمس الشيطاني ، وقال لرجل قوي البنيان بادي الصحة ، شكا له من أنه مسكون بالجن : إنك رجل طويل عريض ، لماذا لا تسكنه أنت ؟! ...

وفي موضع آخر تساءل : هل العفاريت متخصصة في ركوب المسلمين وحدهم ؟ لماذا لم يشك الماني أو ياباني من احتلال الجن لأجسامهم ؟ .

وكان رده على مختلف الآراء والأقاويل التي تتردد في هذا الصدد مستنداً إلى نصوص القرآن القائلة بأن الشيطان لا سلطان مادي له على الناس (الآية ٢٢ من سورة إبراهيم) ـ وأن دوره في الغواية أو التأثير لا يتجاوز الوساوس والخداع . (الآية ٦٤ من سورة الإسراء) ـ وما عدا ذلك لا أساس له في الإسلام ! .

قال : قرأت خمسين حديثاً ترغب في الفقر وقلة ذات اليد .. و ٧٧ حديثاً ترغب في الزهد والإكتفاء من الدنيا بالقليل ، وترهب من حبها والتكاثر فيها والتنافس ، وقرأت ٧٧ حديثاً أخرى في عيشة السلف وكيف كانت كفافاً .. ذلك كله ذكره المنذري في كتابه « الترغيب والترهيب » ، وهو من أمهات كتب السنة . ورحم الله المؤلف الحافظ وغفر لنا وله ، فهو حسن النية ناصح للأمة . بيد أن الفقه الصحيح يقتضي منحى آخر ومسلكاً أرشد.

رد الشيخ ذلك المنطق كله ، والمرويات التي تخدمه ، وقال أنها تساق في مجال محدد لهدف محدد . هي جرع من أدوية يتناولها الإنسان حتى لا يكون منهوماً بالدنيا شقياً باللهاث وراءها . لكنها لا تصلح قاعدة لصياغة موقف الإسلام من الدنيا . فالمشكلة ليست في امتلاك المال الواسع ، بل المشكلة في كيفية تملكه ، وطريقة إنفاقه ... أما أن تعيش صعلوكاً ، حاسباً أن الصعلكة طريق الجنة ، فهذا جنون وفتون ! ـ (ص ١١٤) .

على هذا النسق مضى الشيخ الغزالي في بقية جولاته ، تلك التي تناولت الجهاد والشورى ، وأحاديث الفتن ، ومسألة الجبر والإختيار ، محققاً ومصححاً ، ومعيداً إلى التعاليم نصاعتها ، وإلى العقل اعتباره وإلى الوعي نقاءه وعافيته .

أحسب في ذلك كله يسبح ضد تيار قوي في زماننا ، سيثير على الشيخ الزوابع والأعاصير ، فاقتلاع غابة أمر ليس يسيراً . صحيح أن الشيخ يخوض معركته تلك منذ حوالي نصف قرن . لكنه هذه المرة أطلق أخطر قذائف الحق في جعبته . لهذا فإننا نسأل الله أن يحميه من الأصدقاء قبل الأعداء .

حتى إذا وقف الكل ضده ، فالمستقبل معه ، والله معه ، لأنه في النهاية لا يصح إلا الصحيح ، وما ينفع الناس وحده هو الذي يمكث في الأرض !